من أساليب الحوار القرآني مع أهل الكتاب الوعد عند إسلامهم والمدح لمن أسلم

د/ أنس عبد العليم السعدي
أستاذ التفسير المساعد - جامعة الحديدة

خلاصة :

من خلال بحثي في هذا الموضوع أود ذكر خلاصة ما توصلت إليه

- اتفاق العلماء من المفسرين بأنه إذا أطلق(أهل الكتاب) في القرآن الكريم فان المقصود بهم (اليهود والنصارى) أما غيرهم من الملل والأديان فلم تطلق عليهم هذه التسمية، وبينت الخلاف في الصابئة، أما المجوس فليسوا بأهل الكتاب بالاتفاق.
- ذكرت نماذج من الحوار مع الأخر في القرآن الكريم وبينت كيفية الحوار واسلوبه مع أهل الكتاب ،وذالك بدعوتهم لتوحيد الله وإتباع رسوله(صلى الله عليه وسلم)، وإبطال ونسخ ما كانوا عليه ،مع تعهد القرآن الكريم لهم بالوعد والترغيب والبشارة إن هم آمنوا بالله ورسوله،فإنه أعد لهم الخير الكثير في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة ،ومسامحتهم على ما اقترفوه ضد الإسلام والمسلمين ،وأن الإسلام يجب ما قبله ،ومعاملتهم معاملة المسلمين في الحقوق والواجبات .
- من أساليب القرآن أيضا المدح والثناء على الذين اسلموا من أهل الكتاب أمثال عبد الله بن سلام وغيره ،وجعلهم من المسلمين ،وأعلى شأنهم ،وضاعف الأجر لهم لأنهم آمنوا برسلهم وبخاتم الأنبياء والمرسلين.
- إن رحمة الله وسعت جميع الناس وأنها شملت الكافرين والمشركين والعاصين من المؤمنين وأهل الكتاب ،وذالك بفتح الباب أمامهم ،والحوار معهم ،ودعوتهم إلى التوحيد ،ومجادلتهم بالتي هي أحسن ،وإلقاء الحجج والبراهين عليهم ،وإبطال ما كانوا عليه من ضلاله ،فإن آمنوا واتقوا فإنهم سينالون الأجر في الدنيا والآخرة حالهم حال من أسلم برسالة النبي(صلى الله عليه وسلم).
- إن ما ورد في هذا البحث من مباحث، وفي هذا الملخص من نتائج كان نتيجة استقراء الآيات المتعلقة بالموضوع من التفاسير المعتمدة، وقد أخذتها دراسة وتحليلا ومناقشة مع ترجيح بعض الأقوال.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:-

فإن من نعم الله تعالى أن جعلني من طلبة القرآن وعلومه، وجعل في نفسي حب قراءته والتدبر فيه، وفي مرحلة الدراسات العليا تخصصت به وبخاصة (التفسير) وبدأت بتدريسه للطلبة، ووجدت أثناء التدريس أموراً كثيرة بعد التفكر والتدبر، ومن ضمن ذلك أن رحمة الله وعفوه وغفرانه وسعت جميع الخلق، وجميع بني آدم خصوصاً، وما لفت انتباهي: أن الرحمة والعفو والغفران وسعت أيضاً الكافرين، والمشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، والعاصين من المسلمين حتى إبليس، وقد تبين هذا من طريق حوار القرآن معهم، فبدأ بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى واتباع رسوله ﷺ ، محاوراً ومخاطباً لهم بالحكمة والموعظة الحسنة، مع إلقاء الحجج وإظهار المعجزات، وبين لهم أنهم على ضلالة، وفي حال الاستمرار على ذلك أبلغهم بالعقاب، أما إذا عدلوا عن منهجهم في العناد وتابوا وأنابوا واتبعوا رسوله ﷺ فإن الله قد أعد لهم الخير الكثير بالحياة الطيبة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، حالهم حال من أسلم وصدق وعمل صالحاً، ومن رحمته أيضاً: مسامحتهم على ما أسلفوا من أعمال، وأن الإسلام يجب ما قبله، إن هم أحسنوا إسلامهم.

وقد اخترت أن يكون عنوان بحثي: (من أساليب الحوار القرآني مع أهل الكتاب الوعد عند إسلامهم والمدح لمن أسلم) إن القرآن الكريم غلّب لغة الحوار على أي لغة أخرى، سواء مع الأفراد أم مع الأمم والمجتمعات وسواء كانوا مسلمين أم غير ذلك فمع المسلمين قال: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الحجرات٩، أي بالحوار والتفاهم والتقارب، أما مع غيرهم فقد جاءت الآيات القرآنية تحاور المشركين وأهل الكتاب بل المنافقين، ولكن هذا الحوار لا يمكن أن يبقى إلى الأبد، لأنه لا بد أن يفضي إلى نتيجة إيجابية تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين ومصلحة الدعوة التي جاء بها رسول الله ﷺ بالاستجابة منهم أو بموقف آخر يستخدم في حقهم. فالقرآن كما جاء مبشراً ومرغباً فقد جاء أيضاً منذراً ومتوعداً لمن لا ينصاع إلى أمره سبحانه وتعالى، ويرجع إلى الدين الذي ارتضاه للناس جميعاً وأنه خاتم الأديان الذي جاء به خاتم النبيين المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحة.

أما أهل الكتاب الذين هم موضوع البحث فإني أبين فيه بعض الآيات التي جاءت تحاورهم وتخاطبهم وتدعوهم وتبشرهم بأنهم إذا سلكوا طريق الإسلام فسيكون شأنهم شأن الذين آمنوا بالله ورسوله وملائكته والكتب السماوية والأنبياء واليوم الآخر وكيف عامل الإسلام أهل الكتاب الذين أسلموا ومدحهم وأثنى عليهم وضاعف لهم الأجور.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المبحث الأول: وعنوانه: أهل الكتاب وكيفية الحوار معهم وقسمته إلى مطلبين، المطلب الأول: بينت فيه بعض المصطلحات المتعلقة بالموضوع، أما المطلب الثاني: فكان في الكلام على أسلوب الحوار في القرآن الكريم وبخاصة مع أهل الكتاب، أما المبحث الثاني فقسمته إلى مطلبين، الأول: كان في ذكر معظم

الآيات القرآنية المتعلقة بالوعد والبشارة لأهل الكتاب في حال إسلامهم وأخذت هذه الآيات بالبحث والتحليل والدراسة وأقوال المفسرين في ذلك، أما الثاني فكان في ذكر معظم الآيات التي مدحت أهل الكتاب الذين أسلموا وأخذت هذه الآيات أيضاً بالدراسة والتحليل وبيان أقوال المفسرين في ذلك، وأما الخاتمة فكانت في خلاصة البحث، والله أسأل أن يوفقني لذلك وأن يشرح صدري ويسر أمري، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

المبحث الأول:
من هم أهل الكتاب وكيف يكون الحوار معهم؟
المطلب الأول: في بيان بعض المصطلحات المتعلقة بالموضوع

١- أهل الكتاب: قال الزبيدي: أهل الكتاب: قراء التوراة والإنجيل، والأهل: أصحاب الأملاك والأموال، والأهلية: عبارة عن الصلاحية لوجوب الحقوق الشرعية له أو عليه، وقال ابن كثير: هم اليهود والنصارى وما جرى مجراهم[١]، وقال البيضاوي: (يا أهل الكتاب) يعم أهل الكتابين، قيل: يريد به وفد نجران أو يهود المدينة[٢]، وقال الشوكاني في فتح القدير: وقيل لليهود والنصارى جميعاً، وهو ظاهر النظم القرآني ولا وجه لتخصيصه بالبعض، لأن هذه دعوة عامة، ولا تختص بأولئك الذين جاءوا رسول الله ﷺ[٣]، ولذلك ذكر الله تعالى الأميين وعطفهم على أهل الكتاب في قوله تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم) آل عمران ٢٠.

والأميون هم مشركو العرب الذين لا كتاب لهم، وأما المسلمون – وإن أوتوا كتاباً أيضاً– فلم يسموا بأهل الكتاب لأن صيغ الخطاب القرآني في هذا الشأن جاءت دالة على اختصاص اليهود والنصارى بهذه التسمية، مثل قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب) ولأن الخطاب الذي وجه إلى المسلمين كان مختلفاً مثل: (يا أيها الذين آمنوا) وقد خص الله المسلمين بالتسمية فقال: (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) الحج ٧٨.

٢- اليهودية: هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام والمعروفين ببني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً بالتوراة ليكون نبياً لهم[٤].

ومن الأمور التي كانوا يوصفون بها: تحريفهم للتوراة، ونقضهم للمواثيق والعهود وأنهم يؤمنون بحسب أهوائهم، وكانوا يحسدون المسلمين بأنهم يرون أنفسهم أحقّ بأن يوحى إليهم، ومن عقائد بعضهم قولهم: عزيز ابن الله، وأنهم لم تمسهم النار إلا أياماً معدودة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، (وخلاصة هاد الرجل: أي رجع وتاب، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول سيدنا موسى عليه السلام: (إنا هدنا إليك) أي: رجعنا وتضرعنا وهم أمة موسى وكتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء، لأن ما كان ينزل على إبراهيم عليه السلام والأنبياء من قبله ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً)[٥].

٣- النصرانية: هي الديانة المسيحية التي أنزلت على عيسى عليه السلام مكملة لرسالة موسى عليه السلام، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التهذيب الوجداني والرقي العاطفي والنفسي ولكنها سرعان ما فقدت أصولها مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها حيث ابتعدت كثيراً عن صورتها السماوية الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية[٦].

ومن الأمور التي يعتقدون بها: غلوهم بعيسى حتى جعلوه رباً، وبعضهم جعله ابن الله، ومنهم من جعله هو الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة[٧]. وأن المسيح في نظرهم مات مصلوباً فداء عن الخليقة، ويَعُدّون الصليب شعاراً لهم، فأجابهم القرآن ورد عليهم بآيات كثيرة وبراهين دامغة.

٤- الصابئة المندائية:

هي ديانة موغلة بالقدم، عقائدها مأخوذة عن الأديان السماوية كاليهودية والنصرانية، والأديان الوضعية كالديانة البابلية مثلاً، وكتابهم المقدس يطلقون عليه اسم (كنزا ربّا) أي الكنز العظيم ويدعون أنه صحف آدم عليه السلام [٨]، وقال الزمخشري في تفسيره: الصابئون قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة، وصبأ: إذا خرج من الدين[٩]، وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة، وقال صاحباه: هما صنفان: صنف يقرأون الزبور ويعبدون الملائكة، وصنف لا يقرأون كتاباً ويعبدون النجوم، فهم ليسوا من أهل الكتاب[١٠].

وعلى كل حال فإن الصابئة يؤمنون بالله ويعتبرونه الإله الأعلى، ويعبدون الكواكب ويعتقدون أن لها تأثيراً.

وهل هم من أهل الكتاب أم لا: قال الطبري أن أبا العالية قال: الصابئون فرقة من أهل الكتاب[١١] وذكر ابن كثير أقوالاً عن مجاهد ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين لهم مقرر يتبعونه ويقتنونه[١٢] والراجح أن الصابئين لا يمكن اعتبارهم من أهل الكتاب، أو فرقة من فرق أهل الكتاب.

بدليل قوله تعالى: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا الله لعلكم ترحمون، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) الأنعام١٥٥-١٥٦.

والطائفتان: هما اليهود والنصارى ولم يذكر غيرهما[١٣].

والذي ظهر لي هو أن الصابئة ليسوا من أهل الكتاب بدليل الآية، ومن ذكر أنهم من أهل الكتاب اعتمد على أقوال التابعين بدون الاستناد إلى نصوص قطعية.

٤- المجوس: هم عبدةُ النيران القائلون إن للعالم أصلين: نوراً وظلمة[١٤]، ويعتقدون بوجود (آهورا مزدا) أي: إله النور، ويعبدونه ويعتبرون النار رمزاً للصدق يضفيه أهورامزدا على أتباعه، فالنارُ عندهم رمزٌ مقدسٌ، وأيضاً يعتقدون بوجود (أهرامان) أي: إله الظلام، ولكنهم لا يعبدونه، وهناك من المفسرين من اعتبرهم من أهل الكتاب، لأن الجزية تؤخذ منهم لكن ذلك خلاف الإجماع[١٥] إذ أجمع العلماء على أنهم ليسوا من أهل الكتاب.

والراجح أنهم ليسوا من أهل الكتاب، ولكن يلحقون بأهل الكتاب ببعض الأحكام، أما أنهم ليسوا من أهل الكتاب فلما ذكر في الآية السابقة عند الكلام على الصابئة، ولكن يلحقون بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ببعض أحكامهم، بدليل ما جاء في الحديث الشريف (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) فقد جاء في تفسير القرطبي ما يأتي: وفي الموطأ عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر أمر المجوس فقال: ما أدري ما أصنع في أمرهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) قال ابن المنذر: يعني في الجزية خاصة. وفي قول رسول الله ﷺ هذا دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب، وعلى هذا جمهور الفقهاء[١٦].

ووجدت في مصنف ابن أبي شيبة والزوائد للهيثمي أنه ﷺ كتب إلى مجوس أهل هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قبل منه ومن لم يسلم ضرب عليهم الجزية غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم[١٧].

المطلب الثاني

تعريف الحوار ونماذج من حوار القرآن مع الآخر ومع أهل الكتاب

أ- تعريف الحوار:

الحوار لغة: من الحور: أي الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه حوره[١٨]. وحاورته: أي راجعته الكلام، (وتحاورا) و(أحار) الرجل الجواب: رده و(ما أحاره) ما رده[١٩]. والمحاورة: المجادلة والتحاور: التجاوب، تقول أحرت له جواباً، وما أحار بكلمة، والحور: الجواب[٢٠].

ويتضح مما تقدم أن كلمة الحوار تدور حول المعاني الآتية: الرجوع إلى الشيء وعن الشيء، والتحول من حال إلى حال، والإجابة والرد، والاستنطاق، ومراجعة الحديث.

الحوار اصطلاحاً: من خلال المعنى اللغوي يمكن لنا أن نحدد المعنى الاصطلاحي للحوار وهو: أسلوب يجري بين طرفين يسوق كل منهما من الحديث ما يراه ويقنع به ويراجع الطرف الآخر في منطقه وفكره قاصداً بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره[٢١].

ب- نماذج من الحوار في القرآن الكريم مع الآخر:

١- حوار الله مع الملائكة: بدأ منذ اللحظة الأولى التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل في الأرض خليفة (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) البقرة ٣٠.

٢- حوار الله مع الأنبياء والرسل إلى أقوامهم، كالحوار مع موسى ومع إبراهيم وحوارهما مع قومهما.

٣- حوار الله مع إبليس: وهو من أخطر نماذج الحوار في القرآن، حيث يحاور الله الملك الحق المطلق إبليس رمز الشر المطلق، وهي محاورة تفضي إلى إمكانية الحوار والتفاهم مع الآخر أو إقامة الحجة عليه ولو كان يمثل النقيض (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم

فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، قال يا إبليس ما منعك أن تستجد إذ أمرتك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) الأعراف ١١-١٣والآيات التي بعدها.

٤- حوار النبي مع قومه كموسى وعيسى وجميع الأنبياء والرسل، ومن أمثلة ذلك الآيات (٦٧، ٦٨، ٦٩) سورة البقرة، والآيتان (٥، ٦) سورة الصف.

٥- حوار النبي مع ابنه ومع أبيه كنوح مع ابنه وإبراهيم مع أبيه، ومن أمثلة ذلك الآية (٧٤) من سورة الأنعام، والآيتان (٤٢، ٤٣) من سورة هود، والآيات من (٥٢-٦٦) من سورة الأنبياء.

٦- حوار يبين أن المعرفة المسبقة بالطرف الثاني هو شرط أساسي في إنجاح الحوار كما في قوله تعالى: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً) الكهف ٣٧.

٧- حوار يبين المنهج الإسلامي الأصيل في التربية والدعوة إلى الله وخصوصاً في تغيير الأحكام من الجاهلية إلى الإسلام وبيان التأدب في الخطاب كما في قوله تعالى: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) المجادلة ١.

ج- الحوار مع أهل الكتاب:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ليجد أن الحوار كان قائماً بين الأنبياء وخصومهم، وكان هذا الحوار مبنياً على دعوتهم إلى الله وإلقاء الحجج والبراهين إليهم، والسماع لهم ببيان حجتهم ومناقشتها.

والحوار مع أهل الكتاب له طريق يعلمها إيانا القرآن الكريم قال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) العنكبوت ٤٦.

قال ابن كثير: (قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي محكمة باقية لمن أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن لتكون أنجح فيه كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) النحل ١٢٥، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: (فقولا له قولاً ليلناً لعله يتذكر أو يخشى) طه ٤٠، وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد.

وقوله تعالى: (إلا الذين ظلموا منهم) أي: حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم) [٢٢].

وفي قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) آل عمران٦٤.

قال القرطبي: (قل يا أهل الكتاب) الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدي لأهل نجران وفي قول قتادة وابن جريح وغيرهما ليهود المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة كالأرباب، وقيل:

هو لليهود والنصارى جميعاً[٢٣].

فهذا الخطاب دعوة إلى الحوار وبيان لهم بأن المعبود واحد مما لا يصح بوجود شريك معه ولا أرباب سواه، فإن لم يستجيبوا لهذا الخطاب فليعترفوا بأننا مسلمون وإن استجابوا فهذا هو المقصود.

والأصل في ذلك أن الدعوة إلى الله تعالى مع أهل الكتاب وغيرهم تكون في البداية مبنية على الحكمة والموعظة الحسنة والمناقشة بالحجج والبراهين في جو هادئ ليعلم الآخرون أن الإسلام هو الدين الذي جاء بالرقي والسلوك الحسن عند ذلك يكون الخصم مستعداً لقبول هذا الدين.

فإن لم يستجيبوا بعد إلقاء الحجج عليهم فسيكون الاحتكام لله تعالى في النهاية، فتطبق عليهم أحكام الإسلام بالجزية أو بالقتال كما ورد في قوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) التوبة ٢٩، وعليهم أن يدركوا عن طريق الحوار أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء لقوله تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) آل عمران ٨٥، و(إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران ١٩، حتى الأنبياء هم منقادون مستسلمون لأمر الله، ومثال ذلك إبراهيم الخليل عليه السلام حينما خاطبه ربه بقوله: (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) البقرة ١٣٢.

وفي النهاية يكون الاحتكام إلى الله تعالى فيمن بقي على دينه ولم ينصع للغة الحوار ولا للغة القتال حيث أجمل الله تعالى الموقف العمومي لكل الأديان على حد سواء إذ قال: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) الحج ١٧.

المبحث الثاني:
الوعد والبشارة لأهل الكتاب في حال إسلامهم ومدح من أسلم في بعض الآيات القرآنية دراسة وتحليل

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

أقسام الخطاب لأهل الكتاب خمسة:

١- (الذين آتيناهم الكتاب) العنكبوت٤٧، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح.

٢- (الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) آل عمران٢٣ ولا يكون إلا في معرض الذم.

٣- (الذين أوتوا الكتاب) آل عمران١٨٦ أعم منه، فإنه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون فقط.

٤- (يا أهل الكتاب) آل عمران٧٠ يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم.

٥- الأمر والنهي في (يا أهل الكتاب) آل عمران٧٠ مثل قوله تعالى: (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) آل عمران٦٤، و(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) النساء١٧١.

وقد يرد المدح والذم في آية واحدة مثل قوله تعالى: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) آل عمران٧٥[٢٤].

هذه الآيات التي سأذكرها سأبين فيها طريقة الحوار القرآني مع أهل الكتاب، وتشمل نوعين من الخطاب لهم، أولهما: أهل الكتاب الذين لم يسلموا بعد، وثانيهما: أهل الكتاب الذين أسلموا، فدعا الذين لم يسلموا إلى الإسلام وأن يرتضوه ديناً لهم ويتركوا ما كانوا عليه من الأديان المنسوخة ووعدهم بأن في ذلك نجاتهم في الدنيا والآخرة، وأثنى على الذين أسلموا لأنهم ارتضوا الإسلام ديناً لهم وعلموا – من خلال كتبهم – أن الرسول ﷺ حق وأنه خاتم الأنبياء، وسأورد أكثر الآيات المتعلقة بكلا الصنفين، لذلك سأقسم هذا المبحث إلى مطلبين.

المطلب الأول

الوعد لأهل الكتاب في حال إسلامهم

– في قوله تعالى(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة ٦٢ نبه الله تعالى على أن من أحسن من الأمم السابقة وأطاع فإن له جزاءً الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يونس ٦٢، قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت الآية[٢٥].

حيث شمل أهل الكتاب بهذه المكرمة، وجعلهم في مصاف المسلمين إن هم ساروا على نهج التوحيد، أما من بقوا على دينهم ولم يستسلموا للحجج والآيات المعجزات والدلائل الباهرات فإنهم من الخاسرين.

وقال أبو السعود: من آمن بالله واليوم الآخر: أي من أحدث من هذه الطوائف إيماناً خالصاً بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق، وعمل عملاً صالحاً حسبما يقتضيه الإيمان بما ذكر، فلهم بمقابلة ذلك أجرهم الموعود لهم عند ربهم، أي: مالك أمرهم، ومبلغهم إلى كمالهم اللائق[٢٦].

– وقال تعالى إخباراً عن اليهود: (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) البقرة ٨٠، فرد الله تعالى أنه ليس الأمر كما تمنيتم، فقال: (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) البقرة ٨٠-٨١-٨٢، يقول لو كنتم قلتم (لا إله إلا الله) ولم تشركوا به شيئاً ثم متم على ذلك لكان لكم ذخراً عندي ولم أخلف وعدي لكم أني أجازيكم بها، ومن آمن بما كفرتم به وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على

أهله أبداً لا انقطاع له [٢٧].

وقال البيضاوي: جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده لترجى رحمته ويخشى عذابه[٢٨] وهذا دليل على أن الوعد قائم لهم إن هم آمنوا وعملوا الصالحات.

– ويبين الله اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادّعت كل طائفة منهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها فقال: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) البقرة١١١، ثم بين تعالى المستحق الحقيقي للجنة فقال: (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة ١١٢، (بلى من أسلم): وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة: أي ليس كما يقولون، بل يدخلها من أسلم وجهه لله[٢٩] وهذه دعوة لأهل الكتاب إن هم أرادوا الأجر من الله والخلاص من العقاب فعليهم أن يسلموا وجوههم إلى الله باتّباع رسوله ﷺ.

– وقد رتب الله توبة لمن تاب من أهل الكتاب فقال: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) البقرة١٥٩–١٦٠.

استثنى الله التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المتبيين لتوبتهم، ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل: قد تبت، حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول، فإن كان مرتداً رجع إلى الإسلام مظهراً شرائعه، وإن كان من أهل المعاصي ظهر منه العمل الصالح وجانب أهل الفساد والأحوال التي كان عليها، وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه.

يقول القرطبي: وقيل (بينوا): يعني ما في التوراة من نبوة محمد ﷺ ووجوب اتّباعه[٣٠] والعموم أولى: أي بينوا خلاف ما كانوا عليه.

إذاً قد قبل الله توبة الذي يتوب من أهل الكتاب، وهذا وعد من الله وبشارة وترغيب، ولكن بشرط أن لا تكون التوبة بالقول فقط وإنما بالعمل والرجوع عما كانوا عليه، وأن يبينوا للناس ما كانوا يكتمونه، فعندما تقبل توبتهم تمحى صفة الكفر عنهم بالتزامهم بشريعة النبي ﷺ واتّباع القرآن.

– وفي قوله تعالى: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) البقرة ١٣٧.

يقول تعالى: فإن آمنوا – يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم – بمثل ما آمنتم به أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم (فقد اهتدوا) فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه (وإن تولوا) أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم (فإنما هم في شقاق)[٣١].

والخطاب لمحمد ﷺ وأمته، فإن آمنوا مثل إيمانكم وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين، وقيل أن الباء زائدة مؤكدة[٣٢]. قال الطبري: فإن صدق اليهود والنصارى بالله وما أنزل إليهم وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من

ربهم وآمنوا بذلك مثل ما صدقتم به أيها المؤمنون وأقررتم فقد وفقوا ولزموا طريق الحق واهتدوا وهم حينئذ منكم وأنتم منهم بدخولهم في ملتكم بإقرارهم هذا[٣٣].

– ووعد الله تعالى أهل الكتاب الذين يؤمنون بالتوراة والإنجيل في عهد رسلهم وبالقرآن في عهد محمد ﷺ، وعدهم في هاتين الآيتين بشيئين:

أولهما: تكفير السيئات عما اقترفوه، إضافة إلى نعيم الآخرة.

ثانيهما: كثرة الرزق النازل من السماء والنابت من الأرض، وقد وضح ذلك البيضاوي عند تفسيره لقوله تعالى في الآية الأولى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) المائدة ٦٥ حيث قال: ولو أن أهل الكتاب آمنوا: أي بمحمد وما جاء به، واتقوا ما عددنا من معاصيهم، لكفرنا عنهم سيئاتهم التي فعلوها، ولم نؤاخذهم بها، ولأدخلناهم جنات النعيم، وجعلناهم داخلين فيها، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يجب ما قبله، وإن جلّ، وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يسلم[٣٤].

أما الآية الثانية التي تليها وهي قوله تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) المائدة ٦٦.

قال الرازي: (أي ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، وبما أنزل عليك أيها الرسول – وهو القرآن الكريم – لرزقوا من كل سبيل فأنزلنا عليهم المطر، وأنبتنا لهم الثمر وهذا جزاء الدنيا، وأن من أهل الكتاب فريقاً معتدلاً ثابتاً على الحق، وكثير منهم ساء عمله وضل عن سواء السبيل.

إن الله تعالى لما بين في الآية الأولى أنهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الآخرة، بين في الآية الثانية: أنهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الدنيا ووجدوا طيباتها وخيراتها.

وفي إقامة التوراة والإنجيل ثلاثة أوجه: أحدهما: أن يعملوا بما فيها من الوفاء بعهود الله فيها، ومن الإقرار باشتمالها في الدلائل الدالة على بعثة محمد ﷺ، ثانيهما: إقامة التوراة: إقامة أحكامها وحدودها، وثالثهما: أقاموها نصب أعينهم لئلا يزلّوا في شيء من حدودها وهذه الوجوه كلها حسنة لكن الأول أحسن)[٣٥].

وتكرار اللام هنا في (لكفرنا) و(لأدخلناهم) هو لتأكيد الوعد لهم وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة معاصيهم، وأن الإسلام يجب ما قبله من السيئات[٣٦].

– أما في هذه الآية فيبين الله تعالى سبيل الهداية لأهل الكتاب والمشركين وهو الإسلام، أي لا هداية لهم إلا بالإسلام، والهداية هي الطريق الموصل إلى غاية الشيء والغاية هنا هي: الإسلام، لأن فيه الخير والعدل والنور حيث قال تعالى (فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) آل عمران ٢٠، فقد أمر الله تعالى رسوله أن يدعو الجميع إلى دينه، والدخول في شرعه، فإن اهتدوا وساروا على ذلك بعد إلقاء الحجج والبينات فإن ذلك هو المطلوب، ولذلك قال تعالى: فإن حاجوك أي فإن حادوك وخاطبوك فأجبهم أني أسلمت وجهي لله أنا ومن معي، وأنتم يا أهل الكتاب والمشركين: هل تسلمون،

وهذا من باب المحاورة، فإن كان الجواب بأنهم سيسلمون فقد حصلت لهم الهداية، وإن كان الجواب معكوساً فما على الرسول إلا البلاغ وفي هذا تسلية للرسول ﷺ.

– وهذه بشارة أخرى لأهل الكتاب متعلقة بأن من أراد طريق الإسلام فسيهديه الله تعالى إليه، وأن الرسول ﷺ جاء ليبين لكم هذا الطريق فقال تعالى: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) المائدة ١٥-١٦.

أما تكريم الله لهم فإنه عفا عن كثير مما كانوا يخفون من الكتاب وقد بين بعضها كآية الرجم، وقصة أصحاب السبت المسوخين قردة (قد جاءكم من الله نور) يعني ضياء من الضلالة وهو محمد ﷺ والقرآن[٣٧].

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: (يهدي الله من اتبع رضوانه سبل السلام) قال: سبيل الله الذي شرعه لعباده، ودعاهم إليه، وابتعث به رسله وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية[٣٨].

المطلب الثاني:
(مدح أهل الكتاب الذين أسلموا)

إن من أهل الكتاب من أسلم من اليهود والنصارى الذين عرفوا الحقيقة، وذلك عندما عرفوا صفة النبي ﷺ ونعته في التوراة والإنجيل، ولأن القرآن اشتمل على كثير مما جاء في التوراة والإنجيل ولا سيما ما يتعلق بقصص الأنبياء وأخبار الأمم، وخير دليل على ذلك حينما أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ولقائهم بالنجاشي وتصديقه إياهم واحتضانه لهم (وكان عالقاً بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكون، وكثير من القصص)[٣٩] وأشهر من أسلم من أهل الكتاب هم: عبدالله بن سلام، ومخيرق والنجاشي في عهد النبي ﷺ ، وكعب الأحبار ووهب بن منبه، في زمن الخلفاء الراشدين[٤٠]. وكان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من أخبارهم امتثالاً لقوله ﷺ: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)[٤١] وقد يدور حوار بينهم وبين أهل الكتاب في شيء من الجزئيات وتقبل الصحابة بعض ذلك ما دام لا يتعلق بالعقيدة، ولا يتصل بالأحكام ثم يتحدثون به لما فهموه من الإباحة في قوله ﷺ: (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) أي: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، أما ما جاء في الحديث الأول (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم...) فهو محمول على إذا ما كان ما يخبرون به محتملاً لأن يكون صدقاً، ولأن يكون كذباً فلا تعارض بين الحديثين[٤٢].

أما ما يتعلق بالآيات التي نزلت بحقهم فإنها جاءت مادحة لهم، لأنهم اختاروا طريق الإسلام وأيقنوا – من خلال الحوار والخطاب معهم– أن الذي جاء به محمد ﷺ هو الحق الذي وجدوه في كتبهم وعلموا أيضاً بأن أديانهم منسوخة بهذا الدين الجديد.

– حيث قال تعالى: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة٤-٥.

قال ابن كثير: اختلف المفسرون في الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) البقرة ٣ ومنْ هم؟ على ثلاثة أقوال: وقد حكاها ابن جرير: أحدهما: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد وأبو العالية وربيع وقتادة، والثاني: هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذا تكون الواو عاطفة صفات على صفات والموصوف واحد مثل قوله تعالى: (سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى) الأعلى١-٤، والثالث: أن الموصوفين أولاً هم مؤمنو العرب، والموصوفين ثانيا بقوله تعالى: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.... الآية) هم مؤمنو أهل الكتاب نقله السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير[٤٣] ثم أكد جل ثناؤه أمر المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب المصدقين بمحمد ﷺ وبما أنزل إليه وإلى من قبله من الرسل بقوله: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة ٥ فأخبر أنهم أهل الهدى والفلاح خاصة دون غيرهم، وأن غيرهم هم أهل الضلال والخسار[٤٤]، إذاً من كانت هذه صفته – بما فيهم أهل الكتاب الذين أسلموا – هم الباقون في النعيم والفلاح والظفر والسعادة الدنيوية والأخروية.

– وفي الآية الثانية قال تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) آل عمران١١٣-١١٤.

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: (ليسوا سواء): ليس فريقا أهل الكتاب – أهل الإيمان منهم والكفر – سواء، يعني بذلك: أنهم غير متساويين، يقول: ليسوا متعادلين ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد والخير والشر، وإنما قيل (ليسوا سواءً) لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب الذين ذكرهما الله في قوله (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) آل عمران ١١٠، أي: ليس هؤلاء سواء: المؤمنون منهم والكافرون [٤٥].

والمراد بأهل الكتاب قولان: الأول وعليه الجمهور، أن المراد منه الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، وروي أنه لما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود: لقد كفرتم وخسرتم، فأنزل الله تعالى لبيان فضلهم هذه الآية، وقيل إنه تعالى لما وصف أهل الكتاب في الآية المتقدمة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب ليسوا كذلك، بل فيهم من يكون موصوفاً بالصفات الحميدة، والخصال المرضية، وعن عطاء: أنها نزلت في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام وصدقوا بمحمد ﷺ [٤٦].

ومهما كان سبب نزول هذه الآية فإن المؤدى واحد: وهو أن الله تعالى مدح وذكر فضل أهل الكتاب

الذين أسلموا لأنه استثناهم من الكفر والمعصية باهتدائهم إلى الطريق الصحيح، وانضموا إلى الصف المسلم، ووصفهم الله أيضاً بأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويعملون الخير، فجعلهم الله من الصالحين.

– وكذلك في قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) (آل عمران:١٩٩).

قال جابر بن عبدالله وابن جريح وقتادة وغيرهم: نزلت بسبب أصحمة[٤٧] النجاشي سلطان الحبشة، وذلك أنه كان مؤمناً بالله وبمحمد ﷺ فلما مات عرف بذلك رسول الله ﷺ في ذلك اليوم فقال ﷺ لأصحابه: اخرجوا فصلوا على أخ لكم، فصلى عليه رسول الله ﷺ بالناس فكبر أربعاً، فلما صلىّ عليه ﷺ قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط فنزلت هذه الآية، وقال قوم نزلت في عبدالله بن سلام، وقال ابن زيد ومجاهد نزلت في جميع من آمن من أهل الكتاب[٤٨] ، والراجح أنها نزلت في النجاشي حيث قال السيوطي في لباب النقول: روى النسائي عن أنس: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ﷺ: صلوا عليه، قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي فأنزل الله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله .....إلخ)، وفي المستدرك عن عبدالله بن الزبير قال: الآية نزلت في النجاشي، وأما الواحدي فقد ذكر أنها نزلت في النجاشي أيضاً.

ففي معرض الإيمان وفي مشهد الدعاء والاستجابة يذكر أن من أهل الكتاب من سلكوا الطريق، وانتهوا إلى النهاية، فآمنوا بالكتاب كله، ولم يفرقوا بين الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله، آمنوا بما أنزل إليهم من قبل وآمنوا بما أنزل للمسلمين، وهذه سمة العقيدة التي تنظر إلى موكب الإيمان نظرة القرب والود ليفرقهم بهذا من صفوف أهل الكتاب[٤٩].

إذاً هؤلاء مدحهم الله تعالى وأنهم سينالهم الأجر من الله تعالى وهذا وعد وبشارة لهم في الدنيا والآخرة.

– وفي سورة النساء – بعد أن ذكر معايب أهل الكتاب – ذكر الممدوحين منهم حينما قال: (لكن الراسخون في العلم منهم) النساء١٦٢، قال أبو جعفر: هذا من الله جل ثناؤه استثناء، استثنى من أهل الكتاب اليهود الذين وصف نعتهم في هذه الآيات التي مضت من قوله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاب من السماء....) ثم قال جل ثناؤه لعباده، مبيناً لهم حكم من قد هداه لدينه منهم ووفقه لرشده ما كل أهل الكتاب صفتهم الصفة التي وصفت لكم، لكن الراسخون في العلم منهم: وهم الذين قد رسخوا في العلم بأحكام الله التي جاءت بها أنبياؤه، وأتقنوا ذلك، وعرفوا حقيقته [٥٠].

وهذا لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقين ورسالة النبي ﷺ.

– وفي قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه

الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) القصص٥٢-٥٣-٥٤.

يخبر الله تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) يس١-٢ حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا، قوله: (إنا كنا من قبله مسلمين) يعني من قبل هذا القرآن كنا موحدين مخلصين مستجيبين له، فقال تعالى عنهم (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أي أولئك المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني: يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني.

وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها)[٥١].

وهذا مدح وتفضيل لأهل الكتاب الذين أسلموا فإن الله جعل لهم أكثر مما جعله للمسلمين، فإذا جعل للمسلم أجراً فإنه جعل لهم أجرين لأنهم آمنوا بالله ورسله قبل البعثة، وآمنوا بالله وخاتم الرسل والأنبياء بعد بعثته فضلاً عن أجور الآخرة التي وعدهم بها.

وقد بين ابن الجوزي أقوالاً ثلاثة في قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب) وتكاد تكون متقاربة وهي تؤدي المقصود نفسه فقال: (الذين آتيناهم الكتاب) وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: إنهم مؤمنو أهل الكتاب رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، الثاني: مسلمو أهل الإنجيل روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أحُداً فنزلت فيهم هذه الآية، والثالث: مسلمو اليهود كعبدالله بن سلام وغيره، قاله السدي[٥٢].

– وفي قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار وذلك جزاء المحسنين) المائدة ٨٢-٨٥.

فقد قال الطبري: حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد، قال: عن قتادة قوله: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا) فقرأ حتى بلغ (فاكتبنا مع الشاهدين) أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، يؤمنون به وينتهون إليه، فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ ، صدقوا به وآمنوا به وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم ما تسمعون.

وقيل أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في نفر قدموا على رسول الله ﷺ من نصارى الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا الرسول ﷺ، وقيل أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحاب له أسلموا

معه، وقال السدي في الآية: بعث النجاشي إلى رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً من الحبشة: سبعة قسيسين، وخمسة رهباناً ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وآمنوا فأنزل الله عليه فيهم: (وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل الله ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) فآمنوا ثم رجعوا إلى النجاشي فهاجر النجاشي معهم فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله ﷺ والمسلمون واستغفروا له.

قال أبو جعفر الطبري بعد أن ذكر هذه الأقوال: والصواب في ذلك من القول عندي أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا (إنا نصارى) وأن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب الناس وداداً لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق[٥٣].

(فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين) المائدة ٨٥.

(لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم، وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق، وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه، ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه، لقد علم الله منهم هذا كله، فقبل منهم قولهم، وكتب لهم الجنة جزاء لهم، وشهد لهم سبحانه بأنهم محسنون، والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام[٥٤].

وهناك وجهان للدلالة على الآيات التي سبقت بخصوص أهل الكتاب الذين أسلموا، أولها: أن أسلوب الحوار في القرآن الكريم وتبيينه عن طريق رسول الله ﷺ قد كان له الأثر الإيجابي النافع الذي أثمر في العقلاء من أهل الكتاب، أما الثاني: فإن هذا الخطاب الذي جاء بطابع المدح والثناء لمن أسلم فيه فائدة ونفع لمن لم يسلم من أهل الكتاب الذين وعدهم الله تعالى – كما بينا في المطلب الأول من هذا البحث – وحث لهم على أن يحذوا حذو من أسلم وأنهم إذا ما أسلموا فسيكون حالهم مثل سابقيهم في الإيمان بل مثل جميع المسلمين في الحصول على الحياة الطيبة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الخاتمة: في خلاصة البحث

إن هذا البحث الموسوم (من أساليب الحوار القرآني مع أهل الكتاب الوعد عند إسلامهم والمدح لمن أسلم) قد بينت فيه كيفية وأسلوب الحوار مع أهل الكتاب وذلك من جانبين، أولهما: وعد الله لهم بأن يكونوا في مصاف المسلمين إن هم آمنوا بالله ورسوله ﷺ ، وأنه أعد لهم الخير الكثير في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، إضافة إلى مسامحتهم على ما اقترفوه ضد الإسلام والمسلمين، وأن يتم التعامل معهم كمعاملة المسلمين في الحقوق والواجبات، من خلال ذكر أغلب الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، أما الجانب الثاني: فكان في أسلوب المدح والثناء على الذين أسلموا من أهل الكتاب أمثال النجاشي وعبدالله بن سلام وغيرهما، وكيف انخرطوا في صفوف المسلمين بعد إسلامهم حيث أعلى القرآن شأنهم وضاعف لهم الأجر كونهم آمنوا برسلهم وبرسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وبينت في البحث مفهوم أهل الكتاب وذكرت أنه إذا

أطلقت هذه التسمية فإنها تشمل اليهود والنصارى، أما غيرهم من الملل فلا تطلق عليهم، وبينت الخلاف في الصابئة، أما المجوس فليسوا بأهل كتاب بالاتفاق، وذكرت نماذج من الحوار القرآني مع الآخر داعماً ذلك بالأدلة من الآيات القرآنية. إن ما ورد في هذا البحث فهو ذكر معظم الآيات القرآنية وليس كلها سواء بالجانب الأول أو الثاني لأنني أردت من خلال ذكر هذه الآيات توضيح نموذج يبين أسلوب الحوار مع أهل الكتاب بشقيهم: الوعد لمن لم يسلم والمدح لمن أسلم منهم، وتتبعت أقوال المفسرين وآراءهم وراجعت التفاسير المعتمدة مع المناقشة والتحليل، وخرجت الأحاديث الواردة من الكتب المعتمدة في الحديث، مع سرد للمصادر التي اعتمدت عليها وحسب الحروف الهجائية. وأخيراً فإني أرجو أن يجعل الله جهدي المتواضع بهذا البحث في ميزان حسناتي، أما إذا كان فيه خلل أو نقص فإن الكمال لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

١- تاج العروس ١/ ٦٨٥٩، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥.
٢- تفسير البيضاوي ١/ ٤٨.
٣- فتح القدير للشوكاني ١/ ٥٢٥.
٤- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ص٥٦٥.
٥- الفصل في الملل والأهواء والنحل وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٥٠.
٦- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ٤٩٩.
٧- القائلون بهذا فرق النصارى الناطقة بالتثليث وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية.
٨- الصابئة المندائيون/ تأليف – الليدي دراوة – ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي ص١٠ وما بعدها.
٩- تفسير الكشاف للزمخشري ١/ ٢٨٥.
١٠- تفسير أبي السعود ٣/ ٩.
١١- تفسير الطبري ٢/ ١٤٧.
١٢- تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٧.
١٣- موجز الأديان د. عبد الكريم زيدان ص٩٥.
١٤- المصدر نفسه ص٩٥ وانظر تاج العروس ١/ ٤١٣٢
١٥- المصدر نفسه ص٩٥.
١٦- المصدر نفسه ٩٨-٩٩.
١٧- مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٤٨٨ والزوائد للهيثمي ٢/ ٦٩٠ رقم ٦٧٥ وذكره الإمام مالك في الموطأ في رواية محمد بن الحسن وقال: هو مرسل. انظر الموطأ للإمام مالك ٢/ ١٣٥ رقم الحديث ٣٣٣.
١٨- لسان العرب لابن منظور ٤/ ٢١٧.
١٩- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير تأليف أحمد بن محمد الفيومي ١/ ١٥٦.
٢٠- تاج العروس للزبيدي ١١/ ١٠٧-١٠٨.
٢١- كتاب الأمة/ سلسلة دورية / وزارة الأوقاف/ قطر ص٣٩.
٢٢- تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥١.
٢٣- تفسير القرطبي ٣/ ٤٧٢.
٢٤- مفتاح السعادة لابن القيم الجوزية ١/ ١٠٤
٢٥- تفسير ابن كثير ١/ ١٤٧.

٢٦- تفسير أبو السعود ١/ ١٠٨
٢٧- تفسير الطبري ٢/ ٢٨٧.
٢٨- تفسير البيضاوي ١/ ٣٥٢.
٢٩- فتح القدير للشوكاني ١/ ١٤٢ ومختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١/ ١٠٧.
٣٠- تفسير القرطبي ٢/ ٥٨٦.
٣١- تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٧.
٣٢- تفسير القرطبي ٢/ ٥٤٨.
٣٣- تفسير الطبري ١/ ٦٢٠.
٣٤- تفسير البيضاوي ٢/ ٩٣.
٣٥- تفسير الرازي ١٢/ ٤٠.
٣٦- تفسير أبي السعود ٢/ ٢٦٥.
٣٧- فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٥
٣٨- تفسير الطبري ٤/ ٥٠٣
٣٩- التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ١٦٩.
٤٠- انظر ترجمتهم في التفسير والمفسرون للهبي ١/ ١٨٤ وما بعدها.
٤١- صحيح البخاري ٢٢/ ٣٤٨ باب التفسير ونص الحديث: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال ﷺ (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم...) الحديث.
٤٢- مباحث في علوم القرآن – مناع القطان – ٣٤٤-٣٤٥، وحديث: بلغوا عني: أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣٢٧٤، والترمذي برقم ٢٦٦٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل برقم ٦٤٨٦ وعلق عليه شعيب الأرنؤطي قال: إسناده صحيح على شرط البخاري ورجاله ثقات، وذكره الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٣٨٨ ج٢/ ص٨٧، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٠٦٤٦ ج٧/ ص٣٧٦..
٤٣- تفسير ابن كثير ١/ ١٧٠ وانظر تفسير الطبري ١/ ١٣٩.
٤٤- تفسير الطبري ١/ ٢٤٧.
٤٥- تفسير الطبري ٣/ ٣٩٧
٤٦- تفسير الرازي ٨/ ١٧٤.
٤٧- (أصحمة) هو اسم النجاشي وتفسيره بالعربية (عطية).
٤٨- تفسير ابن عطية ٢/ ٦٦ وينظر لباب النقول للسيوطي ص٥١، وأسباب النزول للواحدي ص٤٩.
٤٩- في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ٥٥١.
٥٠- تفسير الطبري ١/ ٣٩٣
٥١- تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٤ والحديث ورد في صحيح البخاري في باب فضل من أسلم من أهل الكتاب وانظر فتح الباري ١٠/ ٢٠٢ وصحيح مسلم ١/ ٣٦٦.
٥٢- زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٢٢٩.
٥٣- تفسير الطبري ١٠/ ٥٠٢ وتفسير البيضاوي ١/ ٣٥٨.
٥٤- في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ٤١٧.

المصادر:

- القرآن الكريم.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – محمد بن محمد العمادي أبو السعود دار إحياء التراث العربي ببيروت.
- أسباب النزول للواحد – تحقيق سيد أحمد صقر – دار القبلة للثقافة الإسلامية ط٢-١٤٠٤هـ
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي دار الكتب العلمية- ط١.
- تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي – تحقيق عبد الكريم الغرباوي – وزارة الأوقاف – الكويت.

- تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القريشي الدمشقي تحقيق سامي محمد سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع ط(٢) ١٤٢٠هـ.
- التفسير الكبير – مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي – تحقيق عماد زكي البارودي – المكتبة التوفيقية / القاهرة.
- التفسير والمفسرون– محمد حسين الذهبي– دار الكتب الحديثة – القاهرة ط٢ ١٣٩٦هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق/ عبد الرحمن بن معلي اللويحق – مؤسسة الرسالة ط١ ١٤٢٠هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن/ محمد بن جرير الطبري أبو جعفر ٣١٠هـ تحقيق أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة ط١ ١٤٢٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن/ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار الحديث القاهرة – ١٤٢٣هـ.
- الدر المنثور في التفسير المأثور– السيوطي – دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ١٤١١هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ محمود الآلوسي أبو الفضل دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير / عبد الرحمن بن علي الجوزي – المكتبة الإسلامية –بيروت ط٣ ١٤٠٤هـ.
- شعب الإيمان – للبيهقي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١– ١٤١٠هـ – تحقيق محمد سعيد بسيوني زغلول.
- الصابئة المندائيون – تأليف الليدي دراوة / ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي.
- فتح القدير / الجامع بين متني الرواية والدراية من علم التفسير – لمحمد بن علي محمد الشوكاني طبعة جديدة ومنقحة – دار الخير ط١ ١٤١٢هـ – بيروت.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني / توزيع الباز للنشر والتوسيع – مكة المكرمة دار المعرفة للطباعة – ط٢ – ١٩٧٥م – بيروت.
- في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق ط١٠– ١٤٠٢هـ.
- كتاب الأمة/ سلسلة دورية / وزارة الأوقاف ، قطر ، موضوع العدد (الحوار – الذات – الآخر) العدد ٩٩ – ١٤٢٥هـ – دار صادر – بيروت ط١.
- الكشاف – الزمخشري – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ط١ – ١٣٩٧هـ.
- لباب النقول في أسباب النزول – للسيوطي – دار إحياء العلوم – بيروت.
- مباحث في علوم القرآن – مناع القطان – مكتبة وهبة – القاهرة ط١٠ ١٤١٧هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ أبو عبد الله بن محمد بن عبد الحق بن عطية دار الكتب العلمية – ط ١
- مختصر ابن كثير – الصابوني – دار القرآن الكريم / بيروت ط٧ ١٤٠٢هـ.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي – تأليف أحمد بن محمد المغربي الفيومي المكتبة العلمية – بيروت.
- المعجم الكبير – للطبراني – مكتبة العلوم والحكم – الموصل – ط٢ – ١٤٠٤هـ – تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة – محمد بن أبي بكر الرازي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية/ دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان.
- موجز الأديان في القرآن / د. عبد الكريم زيدان/ مؤسسة الرسالة ط١ ١٤١٩هـ.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة/ الندوة العالمية للشباب الإسلامي/ وحدة الدراسات والبحوث / الرياض/ توزيع مكتبة الإرشاد صنعاء ط١ ١٩٩٩م.
- موطأ الإمام مالك – مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي– دار القلم – دمشق ط١ ١٤١٣هـ تحقيق محيي الدين الندوي.